الكتاب[6]، (ولم يعش بعد ذلك سوى سنوات معدودات، إذ توفي عن عمر يناهز الرابعة والأربعين) نجد أن هذا الوصف يتطابق تطابقاً كلياً مع ما عانته المجتمعات العربية، قبل الاحتلال الصهيوني للقدس وفلسطين ولا تزال تعاني، حيث «ليس للمظلوم أنصار، والمستور مهموم، والغني محسود، والفقيه مهجور والأديب غير مشهود»، وهي صورة دقيقة لانحلال المجتمع العربي والإسلامي وتفككه، وبُعده عن القيم الإنسانية الفضلى، دينية كانت أم قومية، فما أشبه الأمس باليوم.

ولكن ما ورد عند «ناصر خسرو» عن القدس في كتابه «سفرنامه» يظل أقرب إلى واقع هذه المدينة مما سبق أن قدمناه، فهو قد زارها قبل نحو نصف قرن من احتلال الصليبيين لها «في الخامس من رمضان سنة 438هـ = 16 آذار/ مارس 1047م»[7] وقد ألّف كتابه في منتصف القرن الهجري الخامس (الميلادي الحادي عشر)[8].

يصف خسرو بيت المقدس بأنها «مدينة كبيرة» سكانها «عشرون ألف رجل» فيها «أسواق جميلة وأبنية عالية» وأرضها «مبلّطة بالحجارة»، وهي قائمة «على قمة جبل، ليس بها ماء غير الأمطار» (وذلك لا يتناقض مع ما ذكره المقدسي حيث ذكر أن ماءها واسع لكثرة ما فيها من صهاريج تجمع بها مياه الأمطار) و «ليس بقربها أشجار قط فإنها على رأس صخر». وهي «محاطة بسور حصين من الحجر والجصّ، وعليها بوابات حديدية»، وفيها «مستشفى عظيم» وفيها «مسجد الصخرة» الذي يقوم على «الصخرة التي أمر الله (عز وجل) موسى (عليه السلام) أن يتخذها قبلة له»، ثم يقدم وصفاً تفصيلياً لهذا المسجد لا يحتاج القارىء إلى وصف أدق منه وأشمل، كما يقدم وصفاً آخر «للمسجد الأقصى» الذي يقوم بالقرب من «مسجد الصخرة» وهو «أكبر مرتين» منه كما أنه «غاية في الزخرف». ثم يصف الصخرة «التي كانت قبلة الإسلام» ويصف «قبة الصخرة»

---

(6) م. ن. ص 23.

(7) خسرو، ناصر، سفرنامة، ص 55.

(8) هناك رأي يقول إن هذا الكتاب قد أُلّف عام 453هـ = 1060م (شيفر)، وهناك رأي آخر يقول إنه أُلّف عام 455هـ = 1063م (تقي زاده)، (م. ن. ص 16)، ولكل من الرأيين حججه.